أسلوبُ (الرُّجوعِ) في التُّراثِ البلاغيِّ والنقديِّ
– دراسةٌ تأصيليَّةٌ –

د. محمد حسن الشعير

دكتوراه في الدراسات النقديَّة والبلاغيَّة – جامعة حمص

الملخَّص:

سعى هذا البحث إلى التأصيل لأسلوب بلاغيٍّ لم ينل حقَّه اللَّازم من البحث والدراسة، وهو أسلوب الرُّجوع، وذلك عبر المنهجين: التاريخيِّ، والوصفيِّ التحليليِّ.

عرَّف البحث – بدايةً – الرُّجوعَ في اللُّغة، وفي اصطلاح البلاغيّين والنُّقاد العرب القدامى، ثمَّ بيَّن جماليَّاته، ومرادفاته، وموقف هؤلاء العلماء منه وطرائق تعاملهم مع شواهده. ثمَّ خُتم البحث بالنتائج المُستفادة، ومن أهمِّها: أنَّ الرُّجوع أسلوب بلاغيٌّ يخرج لأغراض مختلفة، وأنَّه يعينُ المبدعَ على إنتاج المعاني والدِّلالات بطريقة فنِّيَّة لطيفة، وينقلُ أحوالَه النفسيَّة والانفعاليَّة لحظة الإبداع إلى المتلقِّي.

كلمات مفتاحيَّة: الرُّجوع، البلاغة العربيَّة، النقد العربيّ القديم.

The method of (ruju') in rhetorical and critical heritage

-Rooting study-

Dr. Muhammad Hassan Al-Sha'ir

PhD in Critical and Rhetorical Studies – University of Homs

Abstract:

This research seeks to establish a rhetorical technique that has not received its due research and study: the ruju' technique. This research utilizes two approaches: historical and descriptive-analytical.

The research first defines ruju' in the language and among ancient rhetoricians and critics. It then explains its aesthetics, synonyms, the positions of these scholars on it, and the methods they used to deal with its evidence. The research concludes with the most important findings, the most important of which is that ruju' is a rhetorical technique used for various purposes. It helps the creative writer produce meanings and connotations in a subtle, artistic manner, conveying their psychological and emotional states at the moment of creativity to the recipient.

Keywords: ruju', Arabic rhetoric, ancient Arabic criticism

.

أوَّلاً: المقدِّمة:

استعمل الشاعر العربيُّ القديم بحسِّه الفطريِّ المرهف أساليبَ بلاغيَّة متنوعة، استطاع من خلالها أن يعبر عن دواخله، وما يعتمل في نَفْسه من مشاعر وعواطف، وما يجول في خاطره من أفكار ومعان. وقد نهض علماؤنا القدامى منذ بداية التأليف في علوم العربيَّة إلى تتبُّع هذه الأساليب، وبيان أنواعها وأغراضها وطرائق استعمالها، والاستشهاد عليها. ومن تلك الأساليب التي استعملها الشعراء أسلوب (الرُّجوع)، وهو فنٌّ تنبَّه العلماء إليه في مرحلة مبكرة من مراحل التأصيل للأساليب البلاغيَّة، فسجّلوه وقدَّموا شواهد عليه، وهو ما سيكون مدار البحث والدراسة في هذا المقال، وذلك على سبيل حلِّ **إشكاليَّة** تتأتَّى من جهتين: من جهة الدرس البلاغيِّ والنقديِّ القديم؛ وذلك في تباين مواقف العلماء القدامى من شواهد هذا الأسلوب، والخلط الحاصل بينه وبين التناقض الذي هو عيب من عيوب المعاني الشعرية عندهم. ومن جهة الدرس الحديث؛ في غياب هذا الأسلوب عن الدراسات والبحوث، وعدم إدراجه إلى جانب غيره من الأساليب الفنيَّة في الدراسات البلاغيَّة التطبيقيَّة للنصوص الشعريَّة.

ومن ثمَّ فإنَّ البحث يرمي إلى تحقيق جملة من **الأهداف**، تتمحور حول: تعريف الرُّجوع وبيان معناه، وإظهار الفرق بينه وبين التناقض، وبيان الأغراض البلاغيَّة التي قد يخرج إليها، ودراسة موقف العلماء منه، وما لمصطلح الرُّجوع من مرادفات.

وتكمن **أهميَّة البحث** في هذا الموضوع في لفت أنظار الدارسين والباحثين إلى هذا الأسلوب البلاغيِّ، والإفادة من دلالاته البلاغيَّة والجمالية في دراسة النصوص الأدبيَّة وتحليلها. كما أنَّ للبحث أهميَّة أخرى من جهة أنَّه ينمِّي استخدام هذا الأسلوب عند المتكلمين، ويعزز حضوره ويرسخه في الذائقة البلاغيَّة عندهم، ولا سيَّما ذائقة النشء عند من يمتلك منهم موهبة الشعر.

وأمَّا **المنهج**؛ فقد اعتمدت هذه الدراسة في سبيل تحقيق أهدافها المنهجين: التاريخيَّ في تتبع جهود العلماء في تعريف الرُّجوع والاستشهاد عليه، وذلك بدءًا من جهود ابن المعتز (ق3هـ) ووصولًا إلى جهود القزويني والسُّبكي (ق8هـ). والمنهجَ الوصفيَّ التحليليَّ في دراسة شواهد الرُّجوع وتحليلها وبيان أغراضها.

ثانيًا: العرض والمناقشة:

1 – الرُّجوع في اللُّغة:

يحتوي الجذر اللغويُّ (ر ج ع) مادةً لغويَّة غزيرة فيها أكثر من ثلاثين صـيغة بين فعل واسـم، تكاد تجتمع كلُّها على أداء معاني الانصـراف والعودة والارتداد. جاء في تاج العروس: «رَجَعَ:... انصـرفَ، وفي التَّنْزِيل: ﴿إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى﴾ أَي الرُّجوع. رَجَعَ الشـيءَ عن الشـيءِ، ورَجَعَ إليه، ... رَجْعًا ومَرْجِعًا، كَمَقْعَدٍ ومَنزِلٍ: صَـرَفَه ورَدَّه، ... [و] الرُّجوع: العَود»[1].

ومِن الشَّواهد الاستعماليَّة للرجوع، قول الفَرَّاء النحويِّ (ت207هـ): «رجعَ أبو الجراح في كلامـه عن قول [كذا]»[2]؛ أي عـاد عنـه وغيَّره. وجـاء في المثـل: «رجعَ فلانٌ إلى مَحْكِدِه: إذا فعل شـيئًا من المعروف ثم رجعَ عنه»[3]. فالدلالة اللغويَّة للرُّجوع تشـير إلى الانصراف والعودة والتغيير.

2– الرُّجوع في البلاغة العربيَّة:

لا تختلف دلالة (الرُّجوع) في الاصطلاح البلاغيِّ عن دلالته اللغويِّة في العودة عن الشيء وتغييره، ويرجع إلى أبي عُبيدة معمر بن المثنى (ت208هـ) أقدمُ نصٍّ وصل إلينا عن النُّقَّاد والبلاغيِّين العرب القدامى فيه ذكرٌ للرُّجوع، ورد ذلك في سياق تعليقه على قول زهير بن أبي سُلمى: [من البسيط]

قِف بِالدِّيارِ الَّتي لَم يَعفُها القِدَمُ بَلـى وَغَيَّرَهـا الأَرواحُ وَالـدِّيَمُ

قال أبو عبيدة: «أكذبَ نفسَه؛ قال: "لم يعفُها"، ثمَّ رَجَعَ فقال: "بلى..."»[4].

---

(1) **تاج العروس من جواهر القاموس:** مرتضـى الزَّبيدي (ت 1205هـ)، تحقيق مجموعة من المختصين، وزارة الإرشاد – الكويت، 1994م، 65/21. والآية الكريمة في سورة العلق 8.

(2) **معاني القرآن:** أبو زكريا الفرَّاء (ت 207هـ)، تحقيق أحمد يوسف النجاتي وآخرين، دار المصرية للتأليف والترجمة، ط1، 93/2.

(3) **المحكم والمحيط الأعظم:** ابن سيده الأندلسي (ت 453هـ)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 2000م، 36/3.

(4) **شـعر زهير بن أبي سُلمى صنعة الأعلم الشـنتمري** (ت476هـ): تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط3، 1980م، ص 101. والأرواح والدِّيم: الرياح والأمطار.

ولعلَّ ابن المعتز (ت296هـ) أفاد من أبي عبيدة في التأصيل لهذا الأسلوب البلاغيِّ وفي صياغة مصطلح دالٍّ عليه، إذ يعدُّ أوَّلَ من ذكر الرُّجوع وصنَّفه ضمن فنون البديع التي ترد عند الأدباء والشعراء. جاء عنده في سياق تعداد هذه الفنون: «... ومنها الرُّجوع؛ وهو أن يقول شيئًا ويَرْجِعَ عنه؛ كقول بشار: [من الكامل]

نُبِّئتُ فاضحَ أُمِّهِ يغتابُني عَندَ الأَميرِ، وهل عَلَيه أَميرُ![1]».

فقد ذكر بشار بن برد أنَّ المغتاب قد اغتابه عند الأمير، ثمَّ رجع عن ذلك مستنكرًا بعبارة (وهل عليه أميرُ!) أو (وهل عليَّ أمير!) في رواية أخرى[2].

ويفهم من تعليق أبي عبيدة السَّابق، ومن تعريف ابن المعتز للرُّجوع، ومن الشاهدين الشعريين، أنَّ المقصود بالرجوع ليس بأن يرجع الشاعر إلى معنى سابق ليؤكِّده – مثلاً– ويبسطه ويزيد من شرحه، وإنَّما هو رجوع عنه بمعنى تغييره والارتداد عنه وإبطاله.

ثمَّ تابع العلماء بعد ابن المعتز في التأصيل لهذا الأسلوب البلاغيِّ، فنقل عنه الخوارزميُّ (ت387هـ) تعريفه لـ(الرجوع) في كتابه مفاتيح العلوم، وذلك ضمن فصل خاصٍّ وسمه بمصطلحات نقد الشعر[3]، كما تبع ابنَ المعتز مجموعةٌ من النقاد والبلاغيين ثبَّتوا دعائم هذا الأسلوب البلاغي واستطردوا في ذكر شواهده؛ فذكره: أبو هلال العسكري (ت395هـ) في كتابه الصِّناعتين، وأسامة بن منقذ (ت584هـ) في كتابه البديع في نقد الشعر[4].

كما ذكره القزوينيُّ (ت739هـ) في كتابه التلخيص، وعرَّفه بأنَّه: «هو العودُ إلى

(1) **البديع**: عبدالله بن المعتز(ت 296هـ)، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس إغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة – بيروت، ط3، 1982م، ص60.

(2) البيت في ديوان بشار بن برد: شرح وتكميل محمد الطاهر ابن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة، 1966م، 296/3. برواية: (نُبِّئتُ آكِلَ خُرئِهِ) بدل من (نُبِّئتُ فاضحَ أُمِّهِ)، و(وهل عَلَيَّ أَميرُ) بدل من (وهل عليه أَميرُ).

(3) ينظر: **مفاتيح العلوم**: أبو عبد الله الخوارزمي، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط2، ص 116.

(4) ينظر: **كتاب الصناعتين الكتابة والشعر**، أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت، ١٤١٩هـ، ص 395. و**البديع في نقد الشعر**: أسامة بن منقذ تحقيق أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، الجمهورية العربية المتحدة – وزارة الثقافة، ص120.

الكلام السَّابق بالنَّقْضِ لنُكتةٍ»[1]، وأخذ عنه السُّبكيُّ (ت773هـ) في عَروس الأفراح، وصنَّف الرُّجوع ضمن المحسِّنات البديعيَّة المعنويَّة[2]، كما تبعهما مجموعةٌ مِن العلماء، منهم: ابن حجَّة الحمويُّ (ت ٨٣٧هـ)، والسيوطيُّ (ت911هـ)... إلخ[3].

أمَّا في الدرس الحديث، فقد اكتفى بذكر (الرُّجوع) أصحابُ كتب المصطلحات البلاغيَّة، فعرَّفوا به اعتمادًا على تعريفي ابن المعتز والسُّبكي[4]. في حين غاب هذا الأسلوب عن الكتب الدرسيَّة التي خصَّت علوم البلاغة العربيَّة بقدرٍ من التعمُّق والتفصيل، إذ لا نجد له حضورًا في جواهر البلاغة للهاشميِّ – مثلاً– أو في المُفصَّل لعيسى العاكوب[5]. كما أُهمل درسُه في الدراسات والبحوث الأكاديميَّة للأساليب البلاغيَّة في النصوص الأدبيَّة القديمة والحديثة، بحسب ما كان في مقدورنا الاطلاع عليه

(1) **التَّلخيص في علوم البلاغة**: جلال الدين القزويني، ضبطه وشرحه عبدالرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي – بيروت، ط2، 1932م، ص 359.

(2) ينظر: **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**: بهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣ هـ)، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط1، ٢٠٠٣ م، 242/2.

(3) ينظر: **خزانة الأدب وغاية الأرب**: ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ)، عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال– بيروت، ٢٠٠٤م، 282/2. و**معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم**: جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب – القاهرة، ط1، ٢٠٠٤ م، ص 101. و**الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم**: عصام الدين الأسفراييني (ت ٩٤٣هـ)، حققه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 101/1. و**كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**: التهانوي (ت بعد ١١٥٨هـ)، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ط1، ١٩٩٦م، 846/1. و**حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني**: محمد بن عرفة الدسوقي (ت1230هـ)، عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية – بيروت، 48/4.

(4) ينظر: **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**: أحمد مطلوب، منشورات المجمع العلمي العراقي، 1983م. و**معجم البلاغة العربية**: بدوي طبانة، دار المنارة ودار الرفاعي – الرياض، 1988م، ص239. و**المعجم المفصل في علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)**: إنعام فوَّال العكاوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط2، 1996م. ص 573. و**المصطلح النقدي العربي في التراث الأدبي**: محمد عزام، دار الشرق العربي – بيروت، بلا ت، ص 192.

(5) يُراجع كتاب: **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**: أحمد الهاشمي (ت ١٣٦٢هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت. و**المُفصَّل في علوم البلاغة العربية**: عيسى العاكوب، منشورات جامعة حلب – سورية، ط2، 1437هـ.

ومراجعته منها.

3- جماليَّة الرُّجوع:

ظهر من تعريف العلماء للرُّجوع أنَّه يكون بنقض المعنى وبإبطاله وتغييره، ومن ثمَّ فإنَّ الحديث عن جماليته يستوجب منا – بدايةً – بيان الفارق بينه وبين (التناقض) الذي عدَّه النقد العربيُّ القديم من عيوب المعاني الشعريَّة.

فأمَّا التَّناقض: فهو أن يُثبِتَ الشَّاعر شيئًا لشيءٍ بعينه ثمَّ ينفيه عنه، أو أن يقولَ بشيء ثمَّ يقول بضدِّه. وهو عيبٌ بإجماع النقاد القدامى؛ لأنَّ الكلام المتناقض لا طريق للفهم إليه؛ لتخالُف أطرافه وتنافُر معانيه ممَّا يُفسد المعاني، ويمنع إيصالها، وهو إلى جانب ذلك دليل على سوء التأليف، وعيب في عقل القائل في أن يجمع بين المعنى ونقيضه بآنٍ[1].

ومن التناقض الذي سجَّله النُّقَّاد قولُ يزيد بن مالك الغامدي: [من الوافر]

أَكُفُّ الجَهْلَ عَنْ حُلَمَاءِ قَومِي ... وأُعْرِضُ عَنْ كَلامِ الجَاهِلِيْنَا

إِذَا رَجُلٌ تَعَرَّضَ مُسْتَخِفًّا ... لَنَا بِالجَهْلِ أَوْشَكَ أَنْ يَحِيْنَا

فقد أشار غيرُ ناقد إلى أنَّ ثمَّة تناقضًا بين البيتين، وعابوه على الشاعر؛ ذلك لأنَّه أوجب في البيت الأوَّل لنفسه الحلم والإعراض عن الجُهَّال، ونفى ذلك بعينه في البيت الثاني بتعدِّيه في معاقبة الجاهل إلى أقصى مراتب العقوبات، وهو القتل[2].

وأمَّا الرُّجوع فهو بحسب ما جاء في تعريف السُّبكي له – الذي أوردناه قبل قليل – يكون «بالنقض لنكتة»[3]، أي: لغرض بلاغيٍّ، وهو ما وضَّحه في تعليقه على قول زهير بن أبي سُلمى: [البسيط]

---

(1) ينظر: **نقد الشعر**: أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت 337هـ)، تحقيق وتعليق محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتب العلمية – بيروت، ص 195. و**البرهان في وجوه البيان**: إسحاق بن وهب الكاتب (ت335هـ)، تحقيق محمد حفني شرف، مكتبة الشباب ومطبعة الرسالة – القاهرة، 1969م، ص 18. **والوَسَاطة بين المتنبي وخصومه**: القاضي الجرجاني (ت392هـ)، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر، 1966م، ص 415.

(2) ينظر: **نقد الشعر** 201، **والصناعتين** 89. و«أن يحينا»: أن يأتي حَيْنه وأجله؛ أي: يُقتل.

(3) ينظر: **عروس الأفراح** 242/2.

قِف بِالدِيارِ الَّتي لَم يَعفُها القِدَمُ بَلى وَغَيَّرَها الأَرواحُ وَالدِّيَمُ

قال: «لمَّا وقفَ بالدِّيار حصلتْ له كآبةٌ أذهلته، فأخبرَ بما لم يتحقَّق، فقال: "لم يعفُها"، ثم رجعَ إليه عقلُه فتدارك كلامَه، فقال: "بلى وغيَّرها الأرواحُ والدِّيمُ"، كذا قالوه. وليس مرادُهم ما هو ظاهر العبارة من أنَّه غَلِطَ ثمَّ استدرك؛ لأنَّ ذلك يكون غلطًا لا بديع فيه؛ بل المراد أنَّه توهَّم الغلطَ، وإن كان قالَه عن عمدٍ، إشارة إلى تأكيد الإخبار بالثاني، لأنَّ الشيءَ المرجوع إليه يكون تحقُّقه أشدّ»[1].

وقد أفاد الدَّسوقيُّ من كلام السُّبكي وزاد عليه في بيان جماليَّة بلاغة هذا البيت، فبيَّن بأنَّ الشاعر إنَّما رجع: «لأجل إظهار التَّحسُّر والتَّحزُّن على ما فات، فإذا كان الإنسان مُتولِّهًا بحب شيء صار كالمغلوب على عقله، فربَّما ظنَّ أنَّ الشيءَ واقعٌ وليس بواقع، فإذا أَخْبَرَ بشيءٍ على خلاف الواقع لكونه مرغوبًا له ثمَّ عاد لإبطاله بالإخبار بالحقيقة، يَظهرُ من ذلك أنَّه عائدٌ إلى الصدق كُرهًا، وفي ضمن ذلك التأسُّفُ على فوات ما رغب فيه»[2].

فإذا كان التناقض زللًا من الشاعر، يقع به من دون قصد في الغالب، وهو غلط وعيب، فإنَّ الرُّجوع كما بيَّن لنا السُّبكيُّ والدَّسوقيُّ يقع لغرض بلاغيٍّ جماليٍّ يعينُ المبدعَ على إنتاج المعاني وتوليد الدلالات بطريقة فنيَّة، وهو في بيت زهير أفاد تصوير حجم حزنه وتحسُّره وذهوله لِمَا حلَّ بالديار، فقد أنكر عقلُه ما تراه عينه، إلى أنْ عاد إلى رُشده وأدركَ حالَ الدِّيار على حقيقتها فاعترف – متأسِّفًا – بما آلت إليه من خراب وزوال. وهو من خلال ذلك استطاع التعبير عن أحواله النفسيَّة والانفعاليَّة، وجعل المتلقِّي يعايش تلك الأحوال لحظة إنتاجه الشعري.

ويشبه قولَ زهير قولُ أبي الطيب المتنبِّي مستهلًا إحدى قصائده، قال: [من البسيط]

دَمعٌ جَرى فَقَضى في الرَّبعِ ما وَجَبا لِأَهلِهِ وَشَفى، أَنّى وَلا كَرَبا

فقد ذهب المتنبي في هذا البيت إلى أن بكاءه على الطلل شفى قلبه من الشوق، ثمَّ رجعَ بعبارة: "أَنّى وَلا كَرَبا"، فأنكرَ أن يكون قد شُفي، ما أفاد المبالغة في تصوير شدة حزنه وأساه وشوقه إلى من فارق، قال الواحدي (ت468هـ) في سياق شرحه للبيت: «يعني

(1) عروس الأفراح 242/2.

(2) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني 48/4.

أنَّه بكى في أطلال الأحبَّة بدمعٍ قضـــى ما وجبَ لهم وشــفاه مِنْ وجْدِه بهم، ثمَّ رجعَ عن ذلك فقال "أنَّى": أي كيف قضـــى ذلك؟ "ولا كَرَبَ" أي: ولا قاربَ ذلك ولا داناه. يعني لم يقضِ الحقَّ ولا شـفى الوجدَ، وذلك أنَّه أكثرَ البُكاءَ فغلبَ على ظنِّه أنَّه بلغَ قضـاء حقِّهم، ثمَّ عَلِمَ بعدُ أنَّه قاصرٌ عن ذلك فرجعَ عمَّا قال»[1].

فإذا كان البكاء يطفئ نار الشــوق فإنه لم يفلح عند أبي الطيب، بل زاد من شــوقه وحرقته على من فارق. وقريب من ذلك يبرز الرجوع في التشبيب عند أبي بكر الخوارزمي في قوله: [من المتقارب]

إذا مــا ظَـمـئـتُ إلـى ريـقِـه جعلـتُ المُـدامـةَ منــه بَـديلا
وأيـن الـمُـدامَـةُ مِـن ريـقِـه؟ ولـكِن أعلِّـلُ قـلـبـاً عَـلـيـلا[2]

فالشــاعر يبحث عما يسـلِّيه ويعوضــه غياب الأحبة فلجأ إلى الخمرة، ثم رجع في البيت الثاني مســتفهمًا: "وأين المُدامةُ من ريقِه؟ ..."، إذ لا شــيء يمكن له أن يعوضــه الغياب ويروي شوقه. فأفاد الكشف عن شدَّة شوقه حتى أنَّ الخمرة لم تستطع أنْ تسليه وتنسيه، كما أفاد بيان خلابة المحبوب ورقته وسحره الذي فاق فعل الخمرة المُسكر.

وإلى جانب هذه الشــواهد التي أدى الرجوعُ فيها وظيفة بلاغيَّة جماليَّة أفادت بيان شدَّة حزن الشعراء، والأسى والشوق لمن فارقوا، وذُهول عقولهم، وحيرتهم، فإنَّ الرجوع قد يخرج إلى أغراض بلاغيَّة أخرى؛ منها أنَّه يفيد تأكيد المعنى والمبالغة به، ولا ســيَّما في سياق المدح، نحو قول أبي نُواس يمدحُ: [من الرجز]

يا خَيرَ مَنْ كانَ ومَنْ يَكونُ إلّا النَّبِيُّ الطاهِرُ المَيمونُ[3]

فبعد أن جعل أبو نُواس الممدوحَ خيرَ البشر، رجع بعبارة: "إلّا النبــيُّ الطــــاهِرُ المَيــــمــــونُ"، وهذا الرجوع ليس انتقاصًا، إنَّما يفيد المبالغة في المدح؛ ذلك لأنَّه جعل

(1) **شرح الواحدي لديوان المتنبِّي**: تحقيق ياسين الأيوبي وقصي الحسين، دار الرائد العربي – بيروت، ط1، 1999م، 494/1. والبيت في ديوان أبي الطيب المتنبي (354هـ): طبعة صحَّحها وقارن نسخها وعلَّق عليها: عبد الوهاب عزام، لجنة التأليف والترجمة والنشر– القاهرة، ص88.

(2) **معاهد التنصيص** 255/2.

(3) **البديع** 60، والرجز في ديوان أبي نُوَاس (198هـ): شرح غريبه محمود أفندي واصف، المطبعة العمومية بمصر، ط1، 1898م، ص117.

الممدوح في مرتبة تلي مرتبة النَّبيِّ الكريم ﷺ العالية الشـريفة التي لا يدانيها مخلوق، وهذا أقصى ما يمكن أن يكون في المدح، والغاية في الثناء.

وعلى سبيل المبالغة في المدح أيضًا، قال أبو البيداء الرياحيُّ: [من الطويل]

وَمَا لِيَ انتصارٌ إنْ غَدَا الدَّهرُ جائرًا عليَّ، بلى إنْ كانَ مِنْ عندكَ النَّصرُ[1]

فبعد أنْ نفى الشـاعر أن يكون له نصـرٌ إذا الزمان جار عليه، وهو يريد أنَّه لا أحد من الناس في مقدوره أن ينفعه وينصـــره، رجع بعبارة: "بلى إنْ كانَ مِنْ عندَكَ النَّصـــرُ"، فرفع من شأن الممدوح وعظَّمه وأعطاه مزيَّة على غيره.

وعلى عكس ذلك فقد يكون الرجوع من باب الاستصغار والاستخفاف، وهو ما يبرز في بيت بشار: [من الكامل]

نُبِّئـتُ فـاضـــحَ أُمِّـهِ يغتـابُني عَندَ الأَميرِ، وهل عَلَيـه أَميرُ![2]

فرجوعه بعبارة: "وهل عليه أميرُ"، أو بعبارة: "وهل عليَّ أمير" في رواية أخرى، يفيد الاستخفاف بالأمير المقصود والحطَّ من شأنه، وهذا على عادة بشار الجارية في الاستهزاء والاستخفاف بالعامَّة والخاصَّة في كثير من شعره.

تلك هي أظهر الأغراض البلاغيَّة للرُّجوع، والحقيقة أنَّه لا يمكن لنا الإحاطة بها واستقصاؤها، ذلك أنَّها تختلف – كما تبيَّن من الشواهد المذكورة – تبعًا للأغراض الشعريَّة وللسياقات التي ترد فيها.

4- مرادفات الرُّجوع:

لا يخفى أنَّ معظم الأساليب البلاغيَّة التي أصَّل لها القدماء يردُ الواحد منها بأسماء وصـــيغ عديدة، فلا تكاد أن تجد مصـــطلحًا من دون أن يكون له مرادف، من ذلك مثلًا: براعة المطلع، وبراعة الاستهلال، وحسن الافتتاح، وحسن الابتداء، فكلُّها أسماء لأسلوب بلاغيٍّ واحد. ومثل ذلك أيضًـــا: المطابقة والتضـــاد والطباق، والمجانســـة والتجنيس والجناس...إلخ[3].

(1) **الصناعتين** 395، **وخزانة الأدب** 282/2. ولم أعثر على شعر أبي البيداء في ديوان مطبوع.

(2) **البديع** 60. والبيت في ديوان بشار بن برد 296/3.

(3) ينظر: **قضـايا المصـطلح البلاغي – كثرته وتعدُّده، واشـتراكه وصـياغته:** محمد بن علي الصـامل، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج18، ع30، 1425هـ، ص 455.

فأمَّا الرُّجوع فله – بحسب ما توصَّل إليه البحث – مرادفان: الأوَّل (الإكذاب)، وهو متَّفق عليه، وآخر مختلف فيه هو (الاستدراك).

– **الإكذاب:** جاء في تعليق أبي عبيدة على قول زهير: "قفْ بالدِّيار..."»: «أكذب نفسَه؛ قال: "لم يعفُها"، ثم رجع فقال: "بلى..."»[1]. وكما أنَّ هذا النصَّ يعدُّ أقدم نصٍّ وصل إلينا منسوب إلى عالم بعينه فيه ذكر للرجوع بصيغته الفعليَّة (رجع) ، فهو أقدم نصٍّ فيه ذكرٌ للإكذاب أيضًا، وذلك بصيغته الفعليَّة (أكذب). ويراد منه أنَّ نَفْسَ الشاعر أخبرته بالأمر على غير وجه الصواب، فكذَّبها ورجع وأخبر بالحقيقة.

وقد صار الإكذاب مرادفًا للرُّجوع عند بعض العلماء، ومن الذين استعملوا الإكذاب أبو العلاء المعريُّ (ت449هـ)، وذلك في سياق شرحه بيتَ أبي الطيب المتنبي:

دَمعٌ جَرى فَقَضى في الرَّبعِ ما وَجَبا لِأَهلِهِ وَشَفى، أَنّى وَلا كَرَبا

قال أبو العلاء: «وهذا البيت الذي لأبي الطيب فيه الذي يُسمى الإكذاب؛ لأنَّه ادَّعى أنَّ الدمع قضى ما يجبُ للرَّبع، وشفى نفسَه من الوجد، ثمَّ زعم أنَّه لم يفعل ذلك. ومِنْ الإكذاب قول زهير: قِفْ بالدِّيار...»[2].

– **الاستدراك:** استخدم بعض العلماء مصطلح الاستدراك وهم يريدون الرُّجوع، مِن ذلك ما جاء عند ابن معقل الأزديِّ (ت644هـ) في تعليقه على قول زهير "قِفْ بالدِّيار..."، قال: «ذلك النمط يُسمى الاستدراك»[3]. وقد أنكر ابنُ حجَّة الحمويُّ جواز إطلاق هذه التسمية على الرُّجوع، قال: «وأمَّا مَنْ سمَّى هذا النوع استدراكًا واعتراضًا، فتسميته غير صحيحة»، ثمَّ بيَّن سبب اعتراضه في أنَّ الرجوع يكون «بالعود على الكلام بالنقض لنُكتة»[4].

والذي يريده الحمويُّ أنَّ الرُّجوعَ يكون فيه نقض المعنى لغرض بلاغيٍّ وليس لأنَّه

(1) **شعر زهير بن أبي سُلمى** 101.

(2) **اللامع العزيزي:** أبو العلاء المعري (449هـ)، تحقيق محمد سعيد المولوي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية – الرياض، ط1، 2010م، 128/1.

(3) **كتاب المآخذ على شرَّاح ديوان أبي الطيب المتنبي:** ابن معقل الأزدي المهلبي، تحقيق عبد العزيز المانع، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية – الرياض، ط2، 2003م، 62/3.

(4) **خزانة الأدب وغاية الأرب** 282/2.

قيل عن خطأ حتى تصحَّ تسميته بالاستدراك، ذلك أنَّ الاستدراك يحمل في اللُّغة معنى تصحيح الخطأ، في أن يقول القائل شيئًا ثمَّ يكتشف أنَّه كان على خطأ فيستدرك ويصحِّحه، جاء في المعجم: «واستدركَ عليه قولَه: أصلحَ خطأَه»[1].

5- موقف العلماء من الرُّجوع:

يلحظُ الباحثُ في جهود النقاد والبلاغيين القدامى أنَّهم انقسموا ثلاثة فرق إزاء شواهد الرُّجوع، ويمكن لنا تحرير موقفهم على النحو الآتي:

- فريق قَبِلَ الرُّجوع واستحسنه وعدَّه أسلوبًا فنيًّا يلجأ إليه الشعراء لغرض بلاغيٍّ، ويتألف هذا الفريق من جمهور النقاد والبلاغيين، وقد كان مدار الحديث فيما تقدَّم على بيان جهود هذا الفريق الذي كان ابنُ المعتز وأبو هلال العسكري وابن منقذ في طليعته، ثم جاء البلاغيون في القرون اللاحقة، أمثال القزويني والسُّبكي الذي سعوا إلى تقعيد علوم البلاغة وتوضيحها وشرحها، فزادوا على الأوائل بأن حاولوا تأويل بعض شواهد هذا الأسلوب وبيان أغراضها البلاغيَّة.

- وعلى الضفة الأخرى عاب فريقٌ آخر الرجوعَ، وفسَّر المسألة بأنَّها لا تعدو أن تكون تناقضًا بين المعاني وقع به الشعراء، ويمثِّل وجهة نظر هذا الفريق: قدامة بن جعفر (ت337هـ) والمرزبانيُّ (ت382هـ) والقاضي الجرجانيُّ (ت392هـ)، الذين بدا موقفهم المُنكر للرُّجوع من خلال استشهادهم ببيت زهير: "قِفْ بالدِّيار.."، في سياق حديثهم عن عيب (التناقض)، إذ عابوا عليه معنى البيت؛ لأنَّه «نقض بالمصراع الثاني المصراعَ الأول»[2]، فيما ذهبوا.

كما وقف ابنُ جني هذا الموقف المُنكر للرُّجوع، وذلك عند شرحه بعض أبيات أبي الطيب المتنبِّي التي استعمل فيها هذا الأسلوب، من ذلك قوله في مدح سيف الدولة الحمداني: [الكامل]

الشَّمسُ مِنْ حُسَّادِهِ والنَّصرُ مِنْ قُرَنائِهِ والسَّيفُ مِنْ أسمائِهِ

(1) **تاج العروس** 144/27.

(2) ينظر: **الوساطة** 442، وينظر: **نقد الشعر** 201، و**الموشح** - مآخذ العلماء على الشعراء في عدّة أنواع من صناعة الشعر: أبو عبيدالله المرزباني (384هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، ص52.

أَينَ الثَّلاثَةُ مِن ثَلاثِ خِلالِهِ مِن حُسنِهِ وَإِبائِهِ وَمَضائِهِ؟

فقد ذهب ابن جنِّي إلى أنَّ الشاعر نقض في البيت الثاني معنى بيته الأوَّل، فقال عند الثاني: «رجع في هذا البيت عمَّا أعطاه في البيت الذي قبله»[1]. والحقيقة أنَّ مقصد الشاعر من رجوعه ليس سلب الممدوح ما أعطاه، بل الزيادة والإمعان في المدح؛ فهو بعد أن ذكر أنَّ الشمس تحسد الممدوح، علَّل ذلك بأنَّه نتيجة حُسنه، وبعد أن ذكر أنَّ النصر قرينه، رجع متعجِّبًا، أين النصر من إبائه؟! أي: بل إنَّه أكثر إباءً من النصر، وبعد أن ذكر أنَّ السَّيف من أسمائه رجع أيضًا قائلًا: وأين السَّيف من مَضَائِهِ؟! أي: بل هو أمضى من السيف. فالرجوع في البيت الثاني أفاد المبالغة في المدح والزيادة في العطاء والثناء، وليس هناك تناقض بين المعنيين أو انتقاص وتقليل.

وأمَّا الفريق الثالث، فهو فريق لم يسعفه ذوقُه البلاغيُّ في الكشف عن غرض الشاعر من الرُّجوع، لكنَّه في الوقت نفسه لم يتَّهم الشاعر بالتناقض، بل ذهب يحاول إيجاد تأويل للمعاني حتى تستقيم، ومنه ابن سنان الخفاجيُّ (ت499هـ)، يبرز ذلك عنده في محاولته الدفاع عن بيت زهير: "قِفْ بالدِّيار.."، فقد ذهب إلى أن زهيرًا أراد أن الديار لم يدرُسْها ويمسح أثرها تقادم عهدها، وإنَّما دُرست بفعل الرياح والأمطار، قال: «عابوا هذا البيت على زهير، لكنَّه بمجيء "بلى" فيه لم يكن عندي فاسدًا، وقد يمكن فيه من التأويل وجهٌ آخر وهو أنَّ زهيرًا قال: "لم يعفها القدمُ، وغيَّرتها الريحُ والأمطار"، وليس ذلك بمتناقض لأنَّ "التَّغيُّرَ" دون "أنْ تعفو" و"القدم" غير "الريح والمطر". ومَن قال: "لم يقتل زيدٌ عمرًا، بل ضربَه بكرٌ"، لم يكن متناقضًا، وإنَّما المناقضة أن يقول: "لم يقتل زيدٌ عمرًا، وقتله زيدٌ"، ويكون الأوَّل هو الثاني وهذا واضح»[2]. كما أوَّل الأعلم الشنتمري (ت476هـ) المعنى في أنَّ زهيرًا أراد أنَّ الديار «بعضُها عفا، وبعضُها لم يعفُ»[3].

ثالثًا – النتائج المستفادة:

بعد هذا البحث، يمكن لنا أن نخلص إلى النتائج الآتية:

1- أسلوب الرُّجوع أسلوبٌ بلاغيٌّ قديم؛ ورد في أشعار الشعراء الجاهليين مثل زهير

(1) **الفَسْر** 39/1. والبيتان في ديوان المتنبي 342.

(2) **سِرُّ الفصاحة:** ابن سنان الخفاجي (499هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1982م، ص 241.

(3) **شعر زهير بن أبي سُلمى صنعة الأعلم الشنتمري** 100.

بن أبي سُلمى، كما ورد في أشعار شعراء العصور اللَّاحقة.

2- يرجع إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى فضلُ التنبُّه إليه وتسجيله، بوصفه صاحب أقدم نصٍّ وصل إلينا عن العلماء القدامى فيه ذكر للرُّجوع.

3- يعدُّ ابن المعتز أوَّلَ من أصَّل للرُّجوع وصاغ مصطلحه، وقد تبعه في ذلك كثيرٌ من علماء البلاغة والنقد القدماء.

4- الرُّجوع أسلوب بلاغيٌّ يخرج لأغراض مختلفة، منها: إظهار التحسُّر والتحزُّن في سياق البكاء على المنازل، وتأكيد المعنى والمبالغة به في سياق المدح، والاستصغار والاستخفاف في الهجاء... إلخ.

5- يعينُ أسلوبُ الرُّجوع الشاعرَ في إنتاج المعاني والدِّلالات ونقل أحواله النفسيَّة والانفعاليَّة إلى المتلقِّي، ممَّا يجعله يعايش المبدع لحظة إنتاجه الشعري.

6- للرُّجوع مرادفان في استعمالات النقاد والبلاغيين، أحدهما: (الإكذاب) وهو متَّفق عليه وقد استخدمه غير عالم، والآخر هو (الاستدراك)، وهي تسمية وردت على لسان بعض العلماء، وهناك مَن طعن بصحة إطلاقها على هذا الأسلوب.

7- ميز البحث بين ثلاثة اتجاهات للعلماء في التعامل النقديّ مع شواهد الرجوع؛ اتجاه استحسن الرجوع وعده لونًا بلاغيًّا له غرض وغاية، وثان منكرٌ فسَّر الأمر على أنَّه تناقض بين المعاني وقع به بعض الشعراء، واتجاه أخير حاول تأويل أبيات الرُّجوع على وجه تصحُّ من خلاله معانيها وتسلم من التناقض.

ختامًا، وفي ضوء النتائج التي تمَّ التوصُّل إليها، يوصي البحثُ بضرورة الالتفات إلى أسلوب الرجوع والإفادة من معطياته الجماليَّة والمعاني والأغراض البلاغيَّة التي يخرج إليها، وذلك في قراءة النصوص الشعريَّة القديمة والحديثة وتحليلها. كما يوصي البحث بضرورة العودة إلى كتب التراث البلاغيِّ ومعاجم المصطلحات البلاغيَّة الحديثة، وتتبُّع الأساليب والفنون التي أصَّل لها القدماء، وخدمة ما يحتاج منها إلى تعريف ودراسة.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

1. **الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم:** عصام الدين الأسفراييني (ت ٩٤٣هـ)، حقَّقه وعلَّق عليه: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان.
2. **البديع في نقد الشعر**: أسامة بن منقذ (584هـ)، تحقيق أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، الجمهوريَّة العربيَّة المتحدة – وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
3. **البديع:** عبدالله بن المعتز(ت 296هـ)، اعتنى بنشره وتعليق المقدِّمة والفهارس إغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة – بيروت، ط3، 1982م.
4. **البرهان في وجوه البيان:** إسحاق بن وهب الكاتب (ت335هـ)، تحقيق محمد حفني شرف، مكتبة الشباب ومطبعة الرسالة – القاهرة، 1969م.
5. **تاج العروس من جواهر القاموس:** مرتضى الزَّبيدي (ت 1205هـ)، تحقيق مجموعة من المختصين، وزارة الإرشاد – الكويت، 1994م.
6. **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع:** أحمد الهاشمي (ت ١٣٦٢هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصريَّة، بيروت.
7. **حاشية الدَّسوقي على مختصر المعاني لسعد الدِّين التَّفتازاني:** محمد بن عرفة الدَّسوقي (ت1230هـ)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصريَّة – بيروت.
8. **خزانة الأدب وغاية الأرب:** ابن حجَّة الحموي (ت ٨٣٧هـ)، عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال– بيروت، ٢٠٠٤م.
9. **ديوان أبي الطيِّب المتنبِّي** (354هـ): طبعة صحَّحها وقارن نسخها وعلَّق عليها: عبد الوهاب عزام، لجنة التأليف والترجمة والنشر– القاهرة.
10. **ديوان أبي نُوَّاس** (198هـ): شرح غريبه محمود أفندي واصف، المطبعة العموميَّة بمصر، ط1، 1898م.
11. **ديوان بشار بن برد:** شرح وتكميل محمد الطاهر ابن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة، 1966م.
12. **سِرُّ الفصاحة:** ابن سنان الخفاجي (499هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1982م.
13. **شرح الواحدي لديوان المتنبِّي:** تحقيق ياسين الأيوبي وقصي الحسين، دار الرائد العربي – بيروت، ط1، 1999م.
14. **شعر زهير بن أبي سُلمى صنعة الأعلم الشنتمري (ت476هـ):** تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط3، 1980م.
15. **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح:** بهاء الدِّين السُّبكي (ت ٧٧٣ هـ)، تحقيق الدكتور عبد

الحميد هنداوي، المكتبة العصريَّة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط1، ٢٠٠٣ م.

16. **قضايا المصطلح البلاغيِّ – كثرته وتعدُّده، واشتراكه وصياغته:** محمد بن علي الصامل، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربيَّة وآدابها، ج18، ع30، 1425هـ.
17. **كتاب الصناعتين الكتابة والشعر:** أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت، ١٤١٩هـ.
18. **كتاب المآخذ على شُـرَّاح ديوان أبي الطيِّب المتنبِّي:** ابن معقل الأزديّ المهلبيّ، تحقيق عبد العزيز المانع، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميَّة – الرياض، ط2، 2003م.
19. **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم:** التهانوي (ت بعد ١١٥٨هـ)، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ط1، ١٩٩٦م.
20. **اللَّامع العزيزي:** أبو العلاء المعري (449هـ)، تحقيق محمد سعيد المولوي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية – الرياض، ط1، 2010م.
21. **المُحكم والمُحيط الأعظم:** ابن سيده الأندلسي (ت 453هـ)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 2000م.
22. **المصطلح النقدي العربي في التراث الأدبي:** محمد عزَّام، دار الشرق العربي – بيروت، بلا ت.
23. **معاني القرآن:** أبو زكريا الفرَّاء (ت 207هـ)، تحقيق أحمد يوسف النجاتي وآخرين، دار المصريَّة للتأليف والترجمة، ط1.
24. **معجم البلاغة العربيَّة:** بدوي طبانة، دار المنارة ودار الرفاعي – الرياض، 1988م.
25. **معجم المصطلحات البلاغيَّة وتطورها:** أحمد مطلوب، منشورات المجمع العلميِّ العراقي، 1983م.
26. **المعجم المفصَّل في علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني):** إنعام فوَّل العكاوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط2، 1996م.
27. **معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم:** جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب – القاهرة، ط1، ٢٠٠٤ م.
28. **مفاتيح العلوم:** أبو عبد الله الخوارزمي (ت ٣٨٧هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط2.
29. **المُفصَّل في علوم البلاغة العربيَّة:** عيسى العاكوب، منشورات جامعة حلب – سورية، ط2، 1437هـ.
30. **نقد الشعر:** أبو الفرج قُدامة بن جعفر (ت 337هـ)، تحقيق وتعليق محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتب العلمية – بيروت.
31. **الوَسَاطة بين المتنبِّي وخصومه:** القاضي الجرجاني (ت392هـ)، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر، 1966م.